

وظائف الذات الحضارية في الوطنية الجزائرية

الدكتور العربي ولد خليفة *

والاجتماعية والمثالية.

بدون أن نخوض في مدلول تلك المستويات فإننا نجد أن القرآن الكريم قد جمعها كلها في آيات قليلة من سورة يوسف آية 53 يقول تعالى:

”وما أبرئ نفسي إن النفس لأماراة بالسوء إلا ما رحم ربي إن ربي غفور رحيم” وآيات أخرى (من 1 إلى 4) من سورة القيامة ”لا أقسم بيوم القيامة ولا أقسم بالنفس اللوامة أياحسب الإنسان ألن نجمع عظامه بلى قادرين على أن نسوي بنانه” سورة الأولى فيها ما ينتاب الإنسان من غواية وغرور وتغريب والثانية تدعوه لمحاسبة النفس وتندق جرس التنبيه والتحذير.

اما مفهوم الحضارة فهو أكثر تعقيدا اعتباره أحيانا مرادفا للثقافة وهو الاستعـمـال

تقتصر هذه الورقة على جوانب قليلة من مسألة التصالح مع الذات الحضارية ، ونحن على علم بما حظيت به مفاهيم الذات والحضارة والثقافة والمرجعية الجماعية، من أدبيات عزيزة ، وما دار حولها من جدل مازال قائما إلى اليوم ، من بين نتائجه مثلا استحالة تعريف الذات ، لأنها هوية والهوية في حد ذاتها تعريف ، وقد عبر الفيلسوف الأنكليزي المعاصر عن ذلك بقوله : ”ما هو لا يكون إلا هو (TO AUTO . IDEM)”

غير أن استحالة تعريف الذات ، لا يعني امتناعها عن التوصيف والتحليل ، فهناك علم قائم بذاته تأسيس في الولايات المتحدة قبيل منتصف القرن الماضي ، يعرف باسم علم نفس الذات (YSELF-PSYCHOLOG)، يرى أن للذات أربع مستويات هي: الذات الظاهرية والواقعية

بالإنسان ، أو هي من فعله ، وعلى الرغم من التقدم المذهل في علوم الطبيعة والإنسان من المخبر إلى الحوسبة ، فإن الإنسان فرداً أو جماعة يستعصى على (QUANTIFICATION)، لأنه مزيج من المادة والعقل والروح.

لا يمنع ذلك من الإقرار بواحد من الأصول الثابتة في العلم الاجتماعي ألا وهو أن ظواهر الدولة والمجتمع لا تنشأ من فراغ، ولا تحدث بالصدفة ولا توجد في التو ، بل هي محصلة التجربة التاريخية وتراكم الخبرة الجماعية التي تحقق الانتماء لمجال حضاري واحد ، وتكون مصدر التجانس والانسجام بين أفراد المجموعة الوطنية ، بدون أن تلغي الثقافات الفرعية أو الخصائص المحلية ، ونقول ببساطة أن من لا يعتز بقريته أو حيه ويكره العشيرة التي نشأ وترعرع بين ظهرانيها ، من المحتمل أن لا يشعر بغيرة على وطنه ، ولا يتضامن مع أشقائه على امتداده العربي الإسلامي ، فضلاً عن المظلومين في مختلف أرجاء المعمورة.

الغالب لدى الألمان ، وأحياناً مختلفاً عنها، كما هو الحال عند علماء الأنثروبولوجيا (ANTHROPOLOGY) الأمريكيان ، ويزداد مفهوم الحضارة تعقيداً إذا عرفنا أن لكل مفكر تعريفه الخاص فقد أحصى عالم اللسانيات المعاصر تشومسكي أكثر من 400 تعريف تضمنتها دراسات علماء مختصين حتى النصف الثاني من القرن العشرين.

بعد هذه اللمحة الخاطفة عن مسار ومدلول المفاهيم فإننا نجيب بإيجاز على السؤالين التاليين لماذا تدعونا التجربة التاريخية والحاضر والمستقبل للتصالح مع ذاتنا الحضارية ؟ وكيف يتحقق ذلك في مجتمع واجه محنة الاحتلال الاستيطاني وكان قبل بضعة عقود على وشك الخروج من سجلات التاريخ وخرائط الجغرافيا ؟ نجيب على السؤالين السابقين بإيجاز في النقاط التالية:

1) إن ظواهر الدولة والمجتمع لا تخضع في تفسيرها لقوانين يقينية ، لأنها تقتزن

العثمانية دور حاسم في المعركة ، ولكن المقاومة كانت أساسا من الجزائريين وتشكلت حسب مراجع موثوقة من 5000 متطوع من الأهالي و 800 من الأتراك في مواجهة أسطول ضخم من 516 سفينة تحمل 80.000 من الجنود الإسبان والألمان والإيطاليين وفرسان مالطا وقد علقت ش.كورين على هذه الواقعة بقولها:

“لقد هزم الجزائريون بفضل استعدادهم الدائم للتضحية والجهاد أكبر جيوش المسيحيين على وجه الأرض ، فمن يستطيع قهرهم في المستقبل ؟!”

(2-2) لم تعتبر النخب الجزائرية الحضور العثماني في الجزائر لأكثر من 300 عام إستعمارا أجنبيا ، كما رأيت معظم الحركات القومية في المشرق، لذلك ساعدت على الإطاحة بالدولة العثمانية ، بتحريض من الثنائي الفرنسي البريطاني ، بناء على وعود خادعة انتهت باستبدال ما اعتبروه استعمارا باستعمار آخر أكثر استبدادا وشراسة.

(2) أنطلاقا من المعاينة السابقة يمكن الجزم بأن العقيدة الإسلامية ولسانها العربي المبين قد ضمنت الاستمرارية التاريخية للمجتمع الجزائري، وهي الوظيفة الأولى الحيوية للذات الحضارية ، وقد أدت تلك الوظيفة في كل المحن والامتحانات التي تعرضت لها الجزائر في ماضيها البعيد والقريب نذكر منها على وجه الخصوص ثلاثة:

(1-2) بعد أقل من عقدين من سقوط غرناطة 1492-1510 هاجم الإسبان في حملة إعادة الفتح (REQUONQUESTA) غرب المتوسط وركزوا هجومهم على الجزائر بقيادة الإمبراطور شارل الخامس ، تمكن الجزائريون، في شبه غياب للدولة التي تحولت إلى إمارات متناحرة ، من مواجهة العدوان ، والدفاع عن كيانهم الحضاري المتمثل في عقيدتهم الإسلامية وتراثهم الشعبي العريق الذي يمجّد الكرامة ويعشق الحرية.

حقا كان للتضامن والنجدة

أولها : إبادة السكان إن أمكن للحصول على أرض بلا شعب ، أو على الأقل جعل الجزائريين أقلية في عقر دارهم.

وثانيها : تجهيل وتفجير لتبرير عدوانها وتسميته تمدينا للأهالي البرابرة المتوحشين.

تجهيل وتفجير لتبرير عدوانها وتسميته تمدينا للأهالي البرابرة المتوحشين.

وثالثها : تنصير وتجنيس ، أي التحايل على شرائح من السكان وإغرائهم ليكونوا رديفاً ووسيطاً بين إدارة الاحتلال والأهالي ، وقد فشلت محاولات لا فيجري ومؤيديه في باريس والجزائر تحت حكم الأميرال الكاردينال دوقيدون ، ولعل ذلك كان من أسباب اندلاع ثورة الحاج المقراني والشيخ أحماد ، ومن المعروف أن المجتمع الجزائري كان يسمى المتجنس أو " المتورني " ، ونجد تفاصيل هذه الصفحة السوداء في ترجمتنا لأجزاء من دراسة أجرون بعنوان " : المجتمع الجزائري في مخبر الإيديولوجية الكولونيالية ."

2-3) لم تظهر اللائكية في الجزائر كثيراً فكري سياسي يستقطب الجماهير بل كان تأثيره محدوداً حتى داخل النخب الجزائرية وقادة الحركة الوطنية والثورة التحريرية تدل على ذلك مجمل الأدبيات المعروفة ، من الكتاب العريضة لحمدان خوجة سنة 1833 ، إلى بيان أول نوفمبر 1954 ووصف إسلامي الذي حملته الجمعيات والنوادي نعرف كذلك أن كل الانتفاضات انطلقت خلال الثلاثين الأخيرين من القرن 19 من الزوايا معاقل القرآن والعربية في عموم القطر.

3) - حافظت الذات الحضارية على الكيان الجزائري خلال محنة الاحتلال الاستيطاني البائد وأعطت للهوية وظيفة وقائية حمته من الانحلال والذوبان ، وجعلت الإلحاق الجغرافي سنة 1834 بالدولة المعتدية قراراً لأغيا في الواقع الحقيقي للجزائريين ، ولم تتمكن بعد قرن من التدمير والاستئصال من تحقيق مخططاتها الشيطانية المتمثل في برنامج قام على ثلاث عمليات منظمة :

(4) - لاشك أن انتقال قيادات المقاومة من الريف إلى المدينة ابتداء من العقد الثالث من القرن الماضي قد رسخ الهوية الوطنية و مرجعيتها الجماعية ووحدة الشعب الجزائري ، فأصبحت الذات الحضارية أولى مطالب الحركة الوطنية وفصيليها الأكثر تجذرا وقدرة على التأثير وهما : حزب الشعب -

الانتصار وجميعه العلماء المسلمين الجزائريين ، فقد تولى الفصيل الأول تسييس الشعب وتنظيمه وإعداده للمواجهة الحاسمة ، وقام الثاني بعملية إحياء نهضوي واسع النطاق أعاد للجزائريين الثقة بالنفس والاعتزاز بماضيهم الحضاري وإعدادهم معنويا لخوض الكفاح من أجل الحرية والكرامة الوطنية ، ونحن نزعم بأنه لم يكن بالإمكان أن يستيقظ الشعب وتنجح الثورة لولا الجهد المتكامل للفصيلين السابقين معا .

(5) - لا تسمح هذه الورقة بالبرهنة على وحدة الهدف بين فصائل الحركة الوطنية الرئيسية ودفاعها بأساليب

مختلفة عن الذات الحضارية فهناك الكثير من الشواهد التي تدل على ما كان بينهم من احترام وتنسيق للدفاع عن هوية المجتمع الجزائري ، فلم تحدث في تلك الفترة أية اغتيالات أو إهانات بين القادة ، فقد كان بينهم إجماع حول الهدف وهو تحقيق المطالب الأربعة التالية :

1- استعادة الهوية العربية الإسلامية بأبعادها الروحية والحضارية.

2- إنجاز الحرية والحق في المواطنة في دولة سيدة وديمقراطية.

3- العدالة الاجتماعية وفق معايير الاستحقاق وتساوي الفرص ورفض الامتيازات بالطائفة أو الوراثة.

4- السعي إلى التقدم والحضور الفاعل في صميم العصر ، وتجاوز وضعية التخلف الموروثة والمفروض بسيف الاحتلال وسياساته الإجرامية.

6- من يشكك في ذلك الإجماع المبدئي ويبحث عن مرجعية تاريخية خارجها عليه أن يعيد قراءة ما كتبه المرحوم الرئيس فرحات عباس في الشاب الجزائري) :

(LE JEUNE ALGERIEN) يقول :

وقد تفتن جاك بيرك إلى أهمية ما سماه المعطى الديني في المجتمع الجزائري في دراسة بعنوان المغرب (يعني البلدان المغاربية) بين حربين ، فكتب : "إن الإسلام عقيدة ونظام من المثل ، هو الذي أضاع ليل الجزائر وأحياى على الدوام شعلة الأمل."

"ينبغي أن نضيف إلى نظرية التفوق العرقي التي اخترعتها الإمبريالية، قلة الاطلاع على الحضارة الإسلامية ، الحقيقة إن للإسلام تأثيرا عظيما، فهو الذي أنشأ بين شعوب متباينة رابطة لا تنفصم ، أخوة لا نظير لها ، هذه هي قوة الإسلام .. إن تنظيمه الاجتماعي قد ألغى في آن واحد الحدود بين الشعوب والصراع بين الطبقات."

أما البعد الثقافي فهو وثيق الصلة بالبعد السابق ، نظرا لاقتران الإسلام بالعربية في هذه الديار منذ أكثر من ألف عام ، فلم يكن يعني في أي وقت نزعة عرقية تقصي جهة أو جماعة سكانية من المجموعة الوطنية ، ومن المعروف أن الكثير ممن خدموا اللغة والثقافة العربية هم من المناطق الناطقة بالأمازيغية ، كما كان الشرف والمكانة والمهابة ، إلى وقت قريب مقتصران على علماء الدين والعربية ، قبل أن يلتحق بهم المحامون والأطباء والصيادلة قبيل بداية القرن الماضي.

(7) إن الذات الحضارية بأبعادها الثلاثة التاريخية والراهنة تمثل كلالا يتجزأ ولا يقبل الخصوصة والاحتكار والأدلجة (L'IDEOLOGISATION) فالبعد الروحي المتمثل في العقيدة الإسلامية النقية بقي طوال ليل الاحتلال جنسية الجزائريين الباقية ، اعترفت بها إدارة الاحتلال الظالمة فسجلتها في بطاقات التعريف "مسلم" وأضافت إليها صفة "فرنسي" المصطنعة التي لم يعترف بها الجزائريون ، ولم تكن تعني المواطنة لا في نظر باريس ولا في نظر أقلية الكولون الطاغية.

أما البعد الثالث فهو اللسان والثقافة الأمازيغية التي لا تسبق

البعدين السابقين

الأمازيغية إلى مكانتها الطبيعية في دستور الجمهورية ، واعتبارها لغة وطنية وتراثا مشتركا ومصدر اعتزاز لكل الجزائريين وموضوع عناية العلماء والمختصين في مؤسسات الجمهورية.

(8) إن ماضينا الحضاري والنضالي ، بما فيه من نكسات ومآثر ، ليس سجنا يحجب عن أجيالنا الصاعدة متطلبات الحاضر والمستقبل ، بل هو قاعدة الانطلاق لدعم ثوابت القوة

(LES CONSTANTES DE PUISSANCE) التي تمنع الانفراط والفتنة التي تفكك المجتمع وتشغله بنفسه ، في صراع بين قائل ومقتول ، كما حدث في عقد التسعينيات ، مما يؤدي حتما إلى استضعاف الجميع ، وفتح الباب على مصراعيه لحق التدخل الذي ينتظره أقياء العالم الذين إذا دخلوا بلدا أفسدوه وجعلوا أعزة أهله أذلة ، وأمثلة اللبنة والصوملة وما آل إليه الأمر في وادي الرافدين عبرة لأولي الأبواب .

تتأخر عنهما ، بل إنها فيهما ، ولعل هذا ما يعنيه الإمام الجليل عبد الحميد بن باديس بقوله : إننا أمازيغ عربنا الإسلام ، فإذا حدث توتر أو جفاء ، فمن الراجح أن الكثير من أسبابه ترجع إلى البذور الشيطانية التي زرعها فرنسا الكولونيالية طيلة قرن وثلاث تطبيقا لمبدأ فرق تسد ، نجد نماذج كثيرة من حيله وخداعاته في التراث المغشوش المعروف باسم الأنديجينوفيليا

(L'INDIGENOPHILIE) الذي تستخدمه حتى اليوم بعض الأوساط النوستالجية وراء البحر لتحريك عن بعد والانتقام من الجزائر فردوسها المفقود .

إننا لا نميل إلى نظرية المؤامرة الخارجية ، ولا نستبدل الفهم والتفكير بالهروب إلى التبرير ، ف وراء ما حدث سنة 1980 و 1988 و 2001 سوء التقدير ، وأحيانا فساد التدبير ، وغفلة تدراكها الرئيس عبد العزيز بوتفليقة بالدعوة للوئام والتصالح بين الفرقاء في مناخ ديمقراطي صحي ونظيف وبعيد عن شيطنة الآخر والتخندق واللعان وإعادة

إن ذاتنا الحضارية ينبغي أن تبقى ناصعة وجلية في حادثة منتجة وليس حادثة استهلاكية تكون في النهاية مجرد سوق جانبية لحادثة أخرى واثقة من نفسها وهجومية.

خلاصة

نختم هذه الورقة بالنتائج الخمسة التالية:

(1) - على الرغم من مضاعفات الفتنة التي حاقت بالجزائر في العشرية السابقة ، وأضاعت على بلادنا وقتا ثمينيا ، تعاني الدولة والمجتمع من آثاره ، فإن الجزائر تتوفر على خزان لا ينفد من التراث الحضاري والثقافي الذي ساهمت فيه كل جهات الوطن، تراث يزيده التنوع رونقا وجمالا مثل السمفونية لا يكتسب مقطع منها معنى إلا في ضوء الكل الذي يجمعها.

(2) - هناك في كثير من المواقع ، نخب على درجة عالية من الكفاءة والوفاء للثورة

إن طوفان العولمة ليس نعمة ولا نقمة على ذاتنا الحضارية ، إذا أدركنا أنه من الضروري الإسراع بتطبيق قواعد العلم الصحيح في تنظيم الدولة والمجتمع ، بدون أن نحيد قيد أنملة عن خصائصنا الوطنية ومرجعياتنا الحضارية وقد كان ذلك ممكنا بالأمس ، فقد أخذت بلدان الغرب في القرون الوسطى العلم والفلسفة وفن الحياة من حضارة المسلمين ، ولم تغير شيئا من أسنتها وعقائدها ، وهو أمر ممكن اليوم ، كما نرى ذلك ونعجب به في اليابان والصين عملاق المستقبل القريب.

لا يقتصر الفرز على قيمنا الموروثة بل ينبغي أن يشمل قيم الحداثة القشورية وسلوكاتها المناقضة للطبيعة والحس السليم ، فعلى العكس مما توحى به كلمات حادثة، عصرنة، تطور، الظاهر هناك الكثير من الفاسدة والمفسدة أو ما نسميه العادم (DECHET) يشكى منه الساسة ورجال الدين وأهل الرأي في البلدان التي تصنع حادثة اليوم، وما تسميه عصر ما بعد التاريخ.

ومكاسب النصر الذي حققه جيل نوفمبر العظيم ، وفي مقدمتها الاعتزاز بالمرجعية الوطنية وأبعادها الحضارية، وترسيخ وحدة الأرض والشعب ، فليس في الجزائر أقليات عرقية أو لسانية تقابلها أغلبية، إن الأقلية الوحيدة في بلادنا ، جاءت مع الاحتلال الفرنسي الإجرامي، ورحلت معه غير مأسوف عليها ، بعد أن أفسدت الحرث والنسل وفرضت على شعبنا الذل والمهانة.

(3) - إن النخبة الجزائرية المتمسكة بقيم الوطنية والمنتجة للمعرفة والتقانة هي قاطرة التقدم في بلادنا ، مهمتها المستعجلة هي تجاوز هوة التخلف والانطلاق بالجزائر نحو صميم العصر.

إن الدفاع عن مقومات الشخصية الوطنية وتسريع التنمية المتوازنة وتثمين الموارد البشرية وهي الثورة المتجددة ، كل ذلك لا يتوقف على جيل ولا

ينتهي بجيل.

(4) - إذا كان جيل الثورة قد دفع ضريبة الدم والآلام ، فإن على أجيالنا الراهنة والمستقبلية أن تريح رهان القرن 21 الذي ينبغي أن يقترن فيه العلم بالوطنية ، والجهد بالاجتهاد ، في عالم لا يرحم اليد السفلى والحاquدين على ماضيهم أو الجادين فيه.

(5) - لقد شرع الرئيس بوتفليقة في بناء استراتيجية بعيدة النظر بدأت بنشر الوئام بين أبناء الوطن الواحد ، وهي الآن بصدد إنجاز مصالح وطنية شاملة تضمن الأمن والاستقرار في ربوع الجزائر ، فلا تنمية ولا ازدهار ولا تقدم بدون استقرار، وإذا كان العلم الحديث قد أثبت أن الأمن حاجة أولية (NEED PRIMAY)، فإننا نجد في دراسة أبي الحسن الماوردي 364 (هـ 1017 ؟ م) تعبيراً رائعاً عن تلك الحاجة إذ يقول : " الأمن أهنأ عيش والعدل أقوى جيش "